المحاضرة الثامنة

قصيدة التفعيلة

تمهيد : يعدّ شعر التفعيلة شكلا من أشكال الشعر العربي إذ ينتسم بتحوله من فكرة وحدة البيت إلى فكرة وحدة القصيدة ، بالإضافة إلى عدم الإنتظام باستعمال القافية، كما تعود شعر التفعيلة على إيجاد تناسق بين الشكل والمضمون وتعددية التفعيلات ضمن القصيدة الواحدة.
كما يشير معنى لشعر التفعيلة، إلى ذلك النص الأدبي المقسّم إلى عدد من الوحدات تعرف بالأبيات.

إضافة إلى هذا، فإنّ شعر التفعيلة، هو اتجاه حديث في الشعر العربي، جاء استجابة لصرخة الحداثة، التي غزت الساحة العربية في مطلع القرن العشرين، وتجسّد ذلك من خلال توظيفه لبحور شعر غير تقليدية.

1/ تعريف شعر التفعيلة : هو شعر يتكون من سطر واحد فقط، أي ليس له عجز كما هو الشأن في البيت العمودي، ويعتمد على تفعيلة واحدة، ولهذا سمّاه بعض النقاد بالشعر الحر(1)
ويعرّف شعر التفعيلة أيضا، بأنّه مجموعة قصائد تعتمد الشطر الواحد ولا تتقيد أشطرها بعدد معين من التفعيلات، فقد يرد الشطر ذو التفعيلتين يليه آخر ذو أربع تفعيلات وثالث ذو تفعيلة واحدة يقول أحمد عبد المعطي حجازي*:

ولدت هنا كلماتنا
ولدت هنا في الليل يا عود الذرة
يا نجمة مسجونة في خيط ماء

(1) ينظر نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر مكتبة النهضة بغداد 1962 ص 20

* عبد المعطي حجازي شاعر وناقد مصري ولد عام 1935 بمصر يعد من رواد حركة التجديد في الشعر العربي المعاصر

يا ثدي أم لم يعد فيك لبن
يا أيها الطفل الذي مازال عند العاشرة
للكن عيشيه تحولنا كثيرا في الزمن

هذه الأبيات تقوم على تفعيلة البحر الكامل (متفاعلن) وتتفاوت فيها عدد التفعيلات من سطر شعري إلى آخر ، لأن شعر التفعيلة يصاغ من البحور الصافية (المتقارب - المتدارك - الرمل - الرجز - الكامل - ومجزوء هذه الأبحر) .

2/ نشأة شعر التفعيلة : ظهر شعر التفعيلة في منتصف القرن العشرين وبالضبط في عام 1947 « وظهرت معها حيرة ثقافية حرجة حول تسمية هذه الوليدة الشاذة فهي مولد مؤنث ولا شك ، غير أن التسمية الثقافة لم تزل تفكر حسب الشق الذكوري ولذا جاءت المسميات كلها مذكرة » ①.

وجاء شعر التفعيلة عقب فترة ازدهار كاسح للشعر العربي الحديث في الوطن الأم وفي المهاجر ، وعبر مدارس الديوان وأبولو وجماعة الرومانسيين ، حيث عرف الشعر انتعاشات إبداعية كبيرة خطت بالقصيدة العربية خطوات عملاقة سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون ، متأثرة في ذلك بصرخة الحداثة ، التي تشهدها العالم في مختلف المجالات .

على أن هناك شاعرا لا يقل أهمية عن الشاعرة نازك الملائكة ، في عملية التأسيس لبدايات شعر التفعيلة ، ألا وهو بدر شاكر السياب بقصيدة عام 1947 عنوانها "هل كان حبا" « هذا الإحساس العنيف لدى السياب بالتوتر الإبداعي من جهة وضيق الشق العمودي من جهة ثانية هو ما جعله يفوح بالاكتشاف الجديد في تطعيم الوزن العمودي أولا ثم تعرف على ثقافة الأساطير القديمة يوصفها حكايات إنسانية تحمل بذور الهاجس البشري المقموع » ②

---

① - عبد الله محمد الغذامي : تأنيث القصيدة والقارئ المختلف ص 19

② - المرجع نفسه ص 49

يقول السياب في قصيدة (مدينة بلا مطر):

مدينتنا تؤرق ليلها نار بلا لهب
تنعم درويها و الدور ثم تنزل جاها
ويصبغها الغروب بكل ما حملت من سحب
فتوشك أن تطير شرارة ويهب موتاها:
«صحا من نومه الطيني تحت عرائش العنب
صحا لقوز عاد لبابل الخضراء يرعاها»

افتتح الشاعر قصيدته برائحة تفوح منها بدايات القصيدة العمودية وكأنه لم يستطع التخلص منها، أو هو في البدايات الأولى للإيمان بقصيدة التفعيلة، في حين يؤكد في مقدمة ديوانه أساطير الذي صدر عام 1950، أنه تأثر بالشعر الإنجليزي خاصة الشاعر ت.س إليوت*.

المهم بين نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، صراع أدبي حميم، حول الريادة من تعود البدايات الأولى في توظيف شعر التفعيلة، إذ يجسم الناقد إحسان عباس هذه القضية لصالح نازك الملائكة مستدلا في ذلك بنصوص الشاعرين فقصيدة السياب "هل كان حبا" التي يزعم أنها نظمها عام 1946 لم يشذ فيها الشاعر عن الشكل القديم ولم يشق نظمها إلا انشقاقا جزئيا لا يوحي بالجدة، بينما نجد في شعر نازك الملائكة الصادر عام 1949 ما يعكس الوعي بأبعاد هذه الطريقة الجديدة.

ومن رواد شعر التفعيلة، الذين اعتنقوا هذا النوع وآمنوا به، ونحو له نذكر: نازك الملائكة - بدر شاكر السياب - عبد الباسط الصوفي صلاح عبد الصبور - أحمد عبد المعطي حجازي - محمد الفيتوري - أمل دنقل محمود حسن إسماعيل.

3/ عوامل ظهور قصيدة التفعيلة:

يتفق العديد من الدارسين والنقاد على أن مجموعة أسباب ساهمت بشكل كبير في ظهور قصيدة التفعيلة، منها:

---

* توماس ستيرنز إليوت Thomas Stearns Eliot (1888-1965) حائز على جائزة نوبل للآداب 1948. من أشهر قصائده: أغنية حب جي، الأرض اليباب الرجال الجوف، أربعاء الرماد، الرباعيات الأربع، وكتب كذلك في المسرح وفي النقد

أ - الميل إلى الواقع : من خلال توظيف الأوزان الحرة التي تتيح للشاعر المعاصر، الهروب من الأجواء الحالمة التخيلية إلى العالم الحقيقي، لذلك ثورة الأحداث المعاصر وسيرورتها المتسارعة، حالت دون إمكانية الشاعر وضع قيود شعرية خاصة بوحدة القافية يقول نزار قباني في قصيدة "هوامش على دفتر النكسة" :

أنعي لكم يا أصدقائي اللغة القديمة
والكتب القديمة
أنعي لكم
كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة
ومفردات العهر، والهجاء والشتيمة
أنعي لكم ... أنعي لكم
نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة
مالحة في فمنا القصائد
مالحة ضفائر النساء
والليل والأسمار والمقاعد
مالحة أمامنا الأشياء

ب - الجنوح على الإستقلال والتجديد : ويتمثل هذا الجنوح في رغبة الشاعر العربي في الإبتكار والتجديد والتميز عن شخصية شعراء العصور السابقة، فصارت الأغراض الشعرية المعاصرة هي غير الأغراض الشعرية التقليدية، فلا الرثاء هو الرثاء ولا المدح هو المدح ولا الغزل هو الغزل وهلم جرا...

ج - المضمون المعاصر : لقد تناول شعر التفعيلة موضوعات حديثة ومعاصرة لم يتناولها الشعر من قبل، وتعبر عن الواقع الجديد الذي يواجهه الإنسان العربي المعاصر مثال ذلك موضوع المدينة المعاصرة التي أرقت الإنسان والشاعر على حد سواء

يقول صلاح عبد الصبور في قصيدة الخروج " :

أخرج من مدينتي من موطني القديم
مطرحا أثقال عيشي الأليم
فيها وتحت الثوب قد حملت سري
أسل تحت بابها بليل
لا آمن الدليل، حتى لو تشابهت علي طلعة الصحراء
وظهرها الكتوم
أخرج كاليتيم
لم أتخير واحد من الصحاب
لكي يفديني بنفسه، فكل ما أريد قتل نفسي الثقيلة

لقد استحضر الشاعر في هذه المقطوعة بنية الهجرة النبوية في صورة عكسية تجسد تجربة المعاناة والفداء، التي تقاسيها الحداثة في ذاتها ورحيلها، يخرج الشاعر من عصره المادي ويحاول العودة إلى الفطرة، بعد أن فرضت عليه الحياة الأليمة من الخارج.

4- خصائص شعر التفعيلة : لقصيدة التفعيلة خصائص متنوعة يمكن حصرها فيما يأتي :

- شعر التفعيلة موزون فلو لو لم يكن كذلك لما سمي شعرا وأوزانه عادة من البحور الصافية.
- يعتمد شعر التفعيلة على وحدة الوزن الموسيقي غير أنه لا يتقيد بعدد ثابت من التفعيلات
- شعر يقبل التدوير أي أنه قد يأتي جزء من التفعيلة في آخر البيت ويأتي جزء منها في بداية البيت الثاني
- شعر له قدرة على استيعاب الصياغات الحضارية المعاصرة التي عجزت عنها القصيدة العمودية

السؤال : وازن عزيزي الطالب بين القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة وبين النوع الشعري الذي تميل إليه وعلل؟